كنت قد درست اللغة الانكليزية خلسة اثناء دراستي في « اليشيفاه » اي المدرسة الدينية في القدس راودني الفضول للتحدث باللغة الانكليزية وباللغة العربية بطبيعة الحال ، كذلك كنت تواقا الى حل مشكلة ذلك السن مهما كلفني ذلك من الم. فدخلت الى عيادة طبيب الاسنان ، وكانت الساعة عندئذ حوالي الثانية او الثالثة بعد الظهر . وكانت غرفة الانتظار تغص بالمراجعين . وكانوا جميعا يقرأون مجلة « المصور » التي هي على غرار مجلة « لايف » في هذه البلاد (اميركا) . وكانت جميع صفحات المجلة دون استثناء حافلة بصور البوارج والمدمرات التي كان يملك الانكليز منها الكثير ، كما كان الفرنسيون يملكون منها الكثير ، وكذلك كان الالمان يطمحون الى امتلاك الكثير منها استعدادا للحرب التي كان قد تم اقناع الجميع بأنها لازمة وضرورية، وآتية لا ريب فيها . وكانت الصور جميلة ، وامضيت الوقت في تأملها الى ان فرغت غرفة الانتظار من الناس حوالي الساعة الخامسة والنصف حين تقدم مني شاب في حوالي الخامسة والثلاثين من العمر وسألني : « ما علتك ايها الفتى ؟ » . فقلت له : « اريد ان اسألك عن شيء ، فهل تسمح لي بالدخول الى غرفتك ؟ » ، فقال : « بكل تأكيد ! بكل تأكيد ! » . فقلت له : « ان هذا السن يؤذيني . وكان اهلي يقولون لي ان عيني ستدميان وتعميان اذا ما نزع السن » . فانفجر ضاحكا الى درجة خيل لي معها انه لن يفيق من ضحكه . ثم سألني : « هل انت يهودي ؟ » فقلت له : « نعم ، وانني اتعلم في الجمنازيوم » . فقال : « آه ! الجمنازيوم ! الجمنازيوم ! حيث يعلمونكم كيف تكرهوننا » . فقلت له : « ينبغي ان اقر انك على حق ايها الطبيب ، ولكنني جئت اليك لخلع سني » . ففحص السن اولا ثم أخذ يفحص جميع اسناني . وكانت الساعة قد بلغت السادسة والنصف عندما فرغ من فحص أسناني حين قال لي اخيرا : « انظر يا صغيري العزيز ، بوسعي ان انزع لك هذا السن في مدة دقيقتين ، ولن اسبب لك حتى ألما من جراء ذلك ، اذ سأحقنه بـ » . بماذا كانوا يحقنون الاسنان — انها حقنة — لقد نسيت ذلك الان ، ربما تذكرت ذلك فيما بعد . ولكن طبيب الاسنان قال لي : « يا صغيري ؛ لا غرابة انك صغير البنية نحيفها ، ان اسنانك تنز قيحا وصديدا ، انك تتسمم ببطء . علي ان انزع لك حوالي ١٥ من اسنانك وان احشو حوالي عشرة اخرى . وبعد ذلك ، عليك ان تكثر من شرب الحليب وما الى ذلك . هل لك عائلة لتساعدك في ذلك ؟ » فقلت له : « لا ليس لي احد . اذ قد أتيت لتوي من المصرف حيث كنت آمل ان اجد لي حوالة من أخي بمبلغ ثمانية دولارات او اثني عشر دولارا (لا ادري ان كانت ١٠ دولارات او ١٥) ، ولكن يبدو انه لم يكسب ما يكفيه لمساعدتي . اما أمي فهي في روسيا ، وهي ترسل لي من حين الى آخر ما تستطيع ان تحصل عليه من زوجها لمساعدتي ، ولكنني في وضع لا آكل فيه الا عند الحاجة ، وكثيرا ما اتعرض للجوع ، وانني أعلّم الاطفال الآخرين في الجمنازيوم الذين في صفوف اوطأ من صفي » .. وعندئذ قال لي : « انتبه لي ! احضر الى عيادتي يوما بعد آخر حوالي الساعة الرابعة والنصف الى ان افرغ من معالجة اسنانك . سأنزع لك هذا السن الذي يزعجك الآن ، ولكنني سأعالج لك كل اسنانك » .

واختصارا للوقت اقول بايجاز انني بقيت اتردد عليه طوال شهرين الى ان فرغ من معالجة جميع اسناني ، ومعظم الحشوات التي في ضروسي الآن هي من صنعه ، وان طبيب اسناني هنا في بلدة لوس سكاتوس مندهش من امرها لانها ما زالت جيدة ، وهي ما زالت صالحة لانها صنعت بمحبة واخلاص وادخرت فيها أجمل المشاعر . واختصارا للوقت أقول بايجاز : ان هذا جميعه يجعلني أشعر بتعاسة مزرية ، ولعل احسان هذا الطبيب الي اكثر من أي شيء آخر ، علاوة على ما لقنني اياه جدي من تعاليم ، جعلني أحاول مساعدة ضحايا القومية اليهودية — هذا الطبيب العربي الذي عندما سألته يوما : « ان معي ثمانية او عشرة دولارات (أيا كان الرقم ، اذ لا اذكر ما اذا كان أخي يبعث لي اربعة دولارات في الشهر او خمسة) الا تود ان تتقاضى شيئا من أجرك ؟ » . فقال لي : « اشتر بها حليبا ، واشتر بها فاكهة ، انني لا اريد ان اقبض اجري منك . ان ضميري يدفع لي لقاء ذلك . وعندما تكبر ، حاول ان تتخلص من هذه الكراهية لنا ، نحن العرب ، وتذكر انه كان هنالك عربي واحد طيب ، وان هنالك الآلاف مثله في يافا والقدس وفي فلسطين » .

هذا الطبيب ربما انه كان ممن طردوا عام ١٩٤٨ ، او ربما يكون قد قتل في تلك السنة — وحتى ان كان من الناجين فلا بد انه قد مات الآن ، لانه كان